

التفسير المختصر - سورة طه (٢٠) - الدرس (١٣-١٦) : تفسير الآيات ١١٥ - ١٢٤ ، قصة

آدم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٥-٠٥-١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من يسْتَمِعُونَ القول فَيَتَبَعُونَ أَحْسَنَهُ وَأَدْخِلُنَا بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ.

أيها الأخوة الكرام، بعد أن تحدث ربنا عز وجل في سورة طه عن قصة آدم عليه السلام، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقَالَنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزُوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشَقَّقَ (١١٧)﴾

(سورة طه)

لغة يجب أن تكون الآية فشققاً، لكن الآية فشققى، فكيف نفسر هذه الآية؟ قال علماء البلاغة هذا إيجاز، لأن شقاء الرجل هو شقاء حكمي للرجل، والنبي عليه الصلاة والسلام لعله استنبط من هذا الكلام وقال:

((المرأة على دين خليلها))

هو قائد المركبة وهو القييم فإن نقلت من منهاج الله أفسدها، وإن دلّها على الله أسعدها، بهذه لفتة لطيفة.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقَالَنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزُوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشَقَّقَ (١١٧)﴾

[سورة طه]

الجنة لها نظام خاص فالدنيا أساسها الكذب، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلَاقِيهِ (٦)﴾

[سورة الإشراق]

يقول لك: كي أمنت هذا البيت مت من التعب، وحتى حصلت هذه الشهادة العليا سهرت الليالي، وحتى تزوج يعلم الله ! أما الآخرة فلهم ما يشاءون فيها، لمجرد ان يخطر على بالك شيء تراه أمامك، فالدنيا دار سعي، والآخرة دار تكريم، والدنيا دار عمل والآخرة دار جراء والدنيا دار

تكليف والآخرة دار شريف، نظام الدنيا غير نظام الآخرة فهنا جئت إلى الدنيا من أجل أن تعمل، أما في الآخرة فمن أجل أن تكرم، فقديماً الأوائل بكل الشهادات دعوا إلى ولائم وإلى زيارات وحفلات؛ قضية تكريم مخصوص، هدايا، هذا مؤقت، أما الآخرة فكلها تكريمية، ومن أولها إلى آخرها، فالإنسان إذا رأى شجرة تفاح يذوق كل طعمها قبل أن يضعها في فمه، وهكذا نظام الآخرة، فالإنسان يشعر بطعم الفاكهة قبل أن يبلغها، يأتي اللسان فيوضع اللقمة مضوضعة بسقف الحلق؛ هنا أعصاب الذوق، فالفرق بين الفجل والبن دق فقط في هذه المنطقة، وبعدما يدخل الأكل إلى الجوف بكل شيء مثل بعضه فالذي أكل غذاء بألفين ليرة مثل الذي أكل سندويش بخمس ليارات！ فالله عز وجل بالدنيا يمتعك بطعم الطعام لثواني عديدة، أما في الآخرة بكل ما في الجنة تستمتع به دون رهق، فالإنسان بالدنيا له خيارين صعبين؛ إما أن يأكل ما يريد ويتحمل متاعب الضغط والشرابين والوزن، وإما أن يحرّم نفسه الطعام ليشعر بالراحة ورشاقة، أما في الآخرة بكل ما شئت دون أن يكون لها هذا الطعامتأثير، قال تعالى:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٩)﴾

[سورة طه]

الدنيا إن أردت أن ترى إنساناً للزمك الأمر أن تركب مركبة أو طائرة تستغرق الساعات للوصول إلى صديقك أو أخيك، أما في الآخرة فقال تعالى:

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَنِّي لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) إِنَّا مِنْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنِّي لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هُلْ أَنْتُمْ مُطْلَعُونَ (٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٤)﴾

[سورة الصافات]

فأي إنسان يخطر ببالك ترى مصيره ! نظام الآخرة نظام رائع جداً، وكل هذه الآخرة الأبدية تحتاج إلى ثمن وهو طاعة الله تعالى في الدنيا.

قال تعالى:

﴿فَوَسُوسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هُلْ أَدْكُ عَلَى شَجَرَةِ الْخَلْدِ وَمُلْكِ لَا يَبْلِي (١٢٠)﴾

[سورة طه]

لما دخل الطعام جسمه أصبح هناك نظام آخر؛ الأكل المحدود، والهضم والغاز، والعري، وكانت نفس الجسم مرکزها، فأصبح جسداً والنفس بداخله، فالنظام اختلف.

قال تعالى:

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١)﴾

[سورة طه]

لكن هناك آية قبلها، يقول تعالى فيها:

﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾

[سورة طه]

فهو لم يَعْصِ اجْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، وَلَكِنْ عَصَيَ نِسْيَانًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَزْمٌ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، وَالْأَمْرُ كَانَ أَمْرًا إِرْشَادِيًّا وَلَمْ يَكُنْ أَمْرًا تَكْلِيفِيًّا، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ كَذْبٌ، فَالشَّيْطَانُ هُوَ الَّذِي كَذَبَ عَلَيْهِ وَأَغْرَاهُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ لِيَقُولَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، فَأَوْلًا الْأَمْرُ إِرْشَادِيٌّ، وَثَانِيًّا غَيْرَ تَكْلِيفِيٌّ، وَثَالِثًا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ كَذْبٌ، وَرَابِعًا أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَكُونَ لِهَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ دُرْسٌ لِذُرْيَتِهِ إِلَى الْأَبْدِ، فَهَذَا الشَّيْءُ مَقْصُودٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

[سورة البقرة]

إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، فَأَصْلُ الْخَلْقَ أَنَّ الْإِنْسَانَ بِالْأَرْضِ، وَلَكِنْ وُضُعَ فِي هَذِهِ الْجَنَّةِ لِيَكُونَ هَذَا الْحَدَثُ دُرْسًا لِذُرْيَتِهِ إِلَى الْأَبْدِ.

قَالَ تَعَالَى:

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَذِي (١٢٢) قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِيَعْضُ عَدُوًّا﴾

[سورة طه]

الآن دَقَّقُوا فِي هَاتِينَ الْآيَتَيْنِ وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَوْلَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا هَاتَانِ الْآيَاتَنِ لَكَفَتَا ! قَالَ تَعَالَى :

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَىً فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣)﴾

[سورة طه]

هذا كلام خالق الكون، وزوال الكون أهونٌ عَلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ لَا تُحْقَقَ هَذِهِ الْآيَةُ، قَالَ تَعَالَى :

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَىً فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤)﴾

[سورة طه]

فَلَوْ كَانَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ، أَوْ كَنْتَ أَقْوَى إِنْسَانٍ فِي الْأَرْضِ، وَلَوْ كَنْتَ أَغْنَى إِنْسَانٍ أَوْ أَصَحَّ إِنْسَانٍ أَوْ أَجْمَلَ إِنْسَانًا أَوْ غَارِقَ فِي الْمَلَائِكَةِ إِلَى أَقْصَى درَجَةٍ، فَكَلَامُ اللَّهِ هُوَ الصَّادِقُ، قَالَ تَعَالَى :

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤)﴾

[سورة طه]

بعضُ الْعُلَمَاءَ سَأَلُوا : يَا رَبُّ، أَلِيَّةُ مَعِيشَةٍ ضَنْكًا يَعِيشُهَا الْأَغْنَيَاءُ وَالْمُلُوكُ ؟ فَكَانَ الْجَوابُ : ضَيقُ الْقَلْبِ، فَهُنَاكَ ضَيقٌ فِي قُلُوبِهِمْ لَوْ زُرَّ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لِكَفَاهُمْ، قَالَ تَعَالَى :

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤)﴾

[سورة طه]

أَنَا أَقُولُ لَكُمْ هَذِهِ الْكَلْمَةَ : الْأَرْضُ الْآنُ فِيهَا خَمْسَةُ مِلِيَّارَاتٍ، إِذَا وَجَدْتُمْ إِنْسَانًا وَاحِدًا سَعِيدًا وَهُوَ مُعْرَضٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ فَهَذِهِ الْآيَةُ لَيْسَتْ مِنْ كِلَامِ اللَّهِ ! لِأَنَّهُ تَسْتَحِيلُ السَّعَادَةُ مَعَ الإِعْرَاضِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى :

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكٌ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلٌ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ﴾ (٢)

[سورة فاطر]

وإذا أمسك الله عنك شيئاً فهذا من رحمته، وهذه الحقيقة إذا عرفناها اختلف الوضع، فلا تبحث عن السعادة بامرأة ولو زوجتك، ولا بولد، ولا بمال، ولا ببيت فخم ولا بمركبة، ولا بمنصب رفيع، ولكن ابحث عن السعادة بمضانها، ومضانها طاعة الله عز وجل، قال تعالى:

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَىِي فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً
وَتَحْشِرُهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤)﴾

[سورة طه]

لا يضل عقله ولا تشقي نفسه، هذا كلام الذي خلقنا، فالإنسان أحياناً يبحث عن السعادة بمعصية، ومن ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجى، وأقرب مما انتهى، وهل يوجد من لا يحب السعادة؟ هذا مطلب ثابت لكل البشر، ولو كان ملحداً، فهذا له مطلبان؛ السلامة والسعادة، من الذي يحب أن يكون معه مرض خبيث؟! فشل كلوي، أو التهاب كبد وبائي، فهو يرضى بالفقر وغيره ولكن السلامة والسعادة مطلبان ثابتان لكل البشر على اختلاف مللهم ونحلهم، وهذا المطلبان ثمنهما طاعة الله عز وجل، لذا قال تعالى:

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَىِي فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً
وَتَحْشِرُهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤)﴾

[سورة طه]

لهذا قال بعض العارفين بالله تعالى: لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلتنا عليه بالسيوف، والمُجَرِّب يعرف هذا، فالذي يضبط إنفاقه وجوارحه وضبط بيته وعمله، إن لم تقل أنا أسعد الناس فأعمالك هذه ليست صحيحة ! قال تعالى:

﴿وَمَنْ يُطِعُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧١)

[سورة الأحزاب]

والحمد لله رب العالمين